متى ينجح الحوار مع الولايات المتحدة؟

24-9-2003

وبالتأكيد، فإن أي قدر من الحوار مهما بلغ نطاقه لن يترتب عنه أي تغيير في رؤية الرأى العام العربي للولايات المتحدة ونواياها في ظل غياب تغييرات في السياسة، وحسب مارك، فإن الضغط على الحكومة الاسرائيلية لتفكيك المستوطنات والسماح بانتخابات نيابية عراقية حقيقية وكل هذا يمكن أن يساعد في إصلاح الضرر الذي تسببت به السنتان الماضيتان، لكن فقط إذا تم شرح هذا عبر نقاش علني في إعلام عربي مستقل وذي مصداقية.

في جرأة نادرة، كتب الصحفي الأمريكي مارك لينش في المجلة النافذة "فورين أفيرز" (واحدة من أكثر المجلات تأثيرا على السياسية الخارجية الأمريكية) في عددها الأخير أن واشنطن اعتمدت في تعاملها مع الملف العراقي على حسابات خاطئة مفادها أن الرأي العام العربي سيتم كسبه بنصر سريع و"نظيف" في العراق تصاحبه صور العراقيين وهم يرحبون بالجنود الأميركيين كمحررين لهم، وأن "المتشددين" العرب سيشعرون بالصدمة، بل بالرعب، من القوة العسكرية الأمريكية، أما الرأي العام العربي فسيأخذ انطباعا إيجابيا قويا عن مشاعر العرفان بالجميل من جانب الشعب العراقي على حريتهم الوليدة، وبالتالي ستفقد الأصوات المناهضة لأمريكا مصداقيتها، بشكل يفتح الباب أمام تفكير ونقد ذاتي جديدين، لكن في الحقيقة، فإن قلة من العرب نظروا إلى هذا الصراع بالطريقة التي توقعها المحافظون الجدد في واشنطن. كان الجنود المهاجمون يظهرون وهم يتقدمون في وجه مقاومة عنيدة وكانت التغطية العربية تهيمن عليها مشاهد الخسائر البشرية المدنية والخسائر البشرية الأميركية والمباني المدمرة بالقصف والعراقيين الغاضبين. وعلى سبيل المثال كان القصف الذي ضرب سوقاً شعبيا في بغداد يوم 28 مارس عرضاً متكرراً فجر موجة من الغضب، كما أن الإنهيار المفاجيء لبغداد ضاعف هذه الموجة. وفي غضون ذلك، كان إسقاط تمثال صدام حسين يحظى بانتباه أقل بكثير في الإعلام العربي الذي نظر إليه على أنه مسرحية بارعة أدارها العسكريون الأمريكيون بمشاركة عراقية محدودة. ثم تحولت القصة سريعا من قصة "قتال شديد" إلى مستنقع تخبط إداري أمريكي وبريطاني، وعداء العراقي متأصل وتزايد مقاومة حرب العصابات. وفي اللغة المستخدمة لتغطية الحرب، كان الجنود الأمريكيون دوما "الغزاة" وليس "المحررين". ووصف الوجود الأمريكي في العراق كاحتلال لا يختلف عن الإحتلال الاسرائيلي البغيض في فلسطين. وببساطة مثلما يعتبر معظم المسلمين المقاومة الفلسطينية ضد الإسرائيليين رداً شرعياً على الإحتلال، فإن الهجمات على القوات الأمريكية والبريطانية منذ نهاية الحرب كانت توصف كهجمات مفهومة ومشروعة.

ويشير مارك بأن بعض أوساط الحكومة الأمريكية تعترف بهذه المشكلة وحاولت تسويتها، وجهود هؤلاء قد تركزت على الترويج لسياسات الإدارة عبر الظهور بين الحين

والآخر على وسائل الإعلام للمتحدثين من المسئولين والدعاية لتسويق صورة إيجابية عن الولايات المتحدة في محاولة لاختراق العقل العربي. غير أن هذا النهج السابق لم يحقق سوى القليل، لأن الجمهور المستهدف أحس بأن هذه المشاركات كانت "محبوكة". وستواجه القناة التلفازية الفضائية المخطط لإطلاقها برعاية الولايات المتحدة أوقاتاً عصيبة في العثور على حصة لها في السوق، باعتبار أن محتواها السياسي على سبيل المثال سيتهم في مصداقيته بشكل آني على اعتبار أنه مجرد دعاية.

كل هذا سيجعل –حسب مارك- المجموعة الإستشارية للدبلوماسية الشعبية في العالم العربي والاسلامي، وهي لجنة شكلت في يوليو الماضي بطلب من الكونغرس، تبحث عن فرص حيوية في معالجة هذه القضايا. وما ينبغي الضغط باتجاهه بدلا من ذلك هو نهج مختلف جذريا عن طبيعة التعاملات الأمريكية مع المنطقة، نهج يتحدث مع العرب بدلاً من أن يتحدث عليهم ويحاول تحقيق التواصل معهم بدلاً من التلاعب بهم. لقد ميز الفيلسوف الألماني يورغن هابرماس بين الفعل "الاستراتيجي" و"الاتصالي"، حيث يتم تصميم الأول للتلاعب بالآخرين، للمضي قدما في تحقيق المصالح الذاتية لصاحبه فيما يصمم الثاني للبحث عن الحقيقة. وغالبا ما تندرج جهود الدبلوماسية الشعبية الأمريكية في الخانة الإستراتيجية ويضيعون فرصتهم. لقد كانت المعلومات تتدفق في اتجاه واحد. إن العرب والمسلمين يدركون ويرفضون مثل هذه المحاولات باعتبارها دعاية، وهو شيء يعرفونه تماما من أنظمتهم. وهم يشعرون بالغضب من محاولات معاملتهم كالأطفال ويحسون بلسعة الإزدراء في كونهم أهدافاً للتلاعب بدلاً من معاملتهم كمحاورين حقيقيين. ومع ذلك، فإنه إذا دعت لأي حوار حقيقي، فسيكون لها صدى قوي في مشهد الرأي العام العربي الجديد. وفي رأي مارك، فإنه بدلا من استهداف الحاكم العربي أو الفئات الواسعة مثل "الشباب"، على واشنطن أن تركز على التواصل مع المثقفين والمفكرين وغيرهم من الشخصيات العامة من الذين أصبحوا أدوات فاعلة جدا في تشكيل الرأي العام العربي. وإن الحوار الناجح يتطلب تقليل اعتبارات القوة إلى أدنى مستوى ممكن وإظهار الإحترام المشترك. إذ أن الإعتماد على "الصدمة والرعب" لكسب الإحترام سيستعدي أكثر بكثير مما يقنع. كما أن التهديدات بالقوة، سيجذر الكراهية، وعلى الإدارة الأمريكية أن تعترف أن الرأي العام العربي يستطيع أن يتحدث عن نفسه وأنه يستاء بعمق من تجاهله. وإن التواصل مع أصحاب الآراء المعادية سياسيا لأمريكا أكثر أهمية من توفير منصة لأولئك المتفقين مسبقا مع المواقف الأمريكية.

وتؤكد مجموعة العمل في مجلس العلاقات الخارجية في تقرير حديث لها: ليس هناك شك في أن الصور النمطية للأميركيين كمتغطرسين وأنانيين ومنافقين وعديمي الإكتراث بالآخرين وغير مستعدين أو غير قادرين على التواصل في حوار عابر للثقافات هي صور مزمنة وعميقة الجذور، ومثل هذه المواقف تصبغ فهم أي مبادرة. وأي مبادرة يجب أن تبدأ باعتراف بالشك العربي في النوايا الأمريكية، يجب على واشنطن أن تنأى عن لغة الغطرسة والقسوة وتعترف بدلا من ذلك بكامل المصالح والدوافع وراء السياسات الأمريكية.

ويرى مارك لينش أنه يمكن للولايات المتحدة أن تبدأ بمعالجة الإجماع حول عدم صدق

أمريكا في دعوتها للديمقراطية، إذ ولفترة طويلة، يتردد الساسة الأمريكيون في دعم الديمقراطية للعرب بدافع الخوف من أن الإسلاميين قد يفوزون بأي انتخابات حرة، غير أن إحلال الليبرالية السياسية مادامت قد قدمت على أنها هدف أمريكي بارز، لا يتأتى إلا بإظهار أمريكا استعدادها لقبول أي نتائج انتخابية، مثلما فعلت في تركيا، على الرغم من أن ذلك حصل على مضض منها. إلا أن أهم بند على جدول العمل في ما يدعو إليه مارك يجب أن يكون العراق، فالأفعال الأمريكية هناك على مدى الشهور العدة المقبلة ستكون ذات أثر أكبر على العلاقات الأمريكية مع العالم العربي أكثر من أي شيء آخر، حيث إن السياسات الإرتجالية الحالية في العراق -كما يذكر مارك- والتي يراها معظم الأمريكيين ردود فعل مصلحية، يُنظر إليها من جانب معظم العرب على أنها دليل يثبت أولويات أمريكية خبيثة.

وبالتأكيد (كما يرى مارك) فإن أي قدر من الحوار مهما بلغ نطاقه لن يترتب عنه أي تغيير في رؤية الرأى العام العربي للولايات المتحدة ونواياها في ظل غياب تغييرات في السياسة، وحسب مارك، فإن الضغط على الحكومة الاسرائيلية لتفكيك المستوطنات والسماح بانتخابات نيابية عراقية حقيقية وكل هذا يمكن أن يساعد في إصلاح الضرر الذي تسببت به السنتان الماضيتان، لكن فقط إذا تم شرح هذا عبر نقاش علني في إعلام عربي مستقل وذي مصداقية.

وفي الأخير، يقرر الصحفي الأمريكي أن الحوار مع العرب لن يقدم رصاصات سحرية، إنه يتطلب صبرا وضبطا للنفس والتزاما مستديما ببذل الجهود، ويجب على إدارة بوش ان تضع جانبا كراهيتها للدبلوماسية، وحبها للتهديد والقهر وميلها لتقسيم العالم إلى فئات تبسيطية من الخير والشر، لكن بالنظر إلى التغييرات التي حدثت في العالم العربي في السنوات الأخيرة، فإن مثل هذا الحوار قد يكون الطريقة الأفضل وربما الوحيدة في إصلاح العطب في العلاقات مع الوطن العربي.

للعودة للأعلى